نظام الأسرة فى مصر

وعلاقة الزواج والطلاق بهذا النظام

للسيدة نفيسه علام

لعلى لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن نظام الأسرة فى مصر سواء أكان فى المدن أم القرى هو نظام واحد إلا أنه فى المدن يحتاج الى مظاهر المدنية .

وفى القرى يحتاج الى المحافظة على عادات أهل القرية . والمدنية فى المدن والعادات فى القرية كلاهما عادة ، إلا أن العادة فى المدن مكتسبة ، والعادة فى القرى موروثة . والدليل على هذا أننا ونحن فى المدينة لا نستطيع الإقلاع عن تقليد من نتخذه أنموذجا لنا فى حياة المدينة ومتى ذهبنا إلى القرية راعينا العادات الموروثة وطرحنا جانبا كل مؤثرات المدنية .

فالأسرة هى الأسرة ، سواء أكانت أسرة أسست فى المدينة ، أم أسست فى القرية . لأن الأساس واحد فى الاثنين وأعنى به الزواج .

فالزواج أساس الأسرة وتكوين الأسرة لبنة فى بناء العمران . ولكن هذا التكوين الذى نتحدث عنه يحتاج الى شىء من التفكير فى نوع المعاول التى تهدم الأسرة وتعمل بناءها إلى أنقاض .

والأسرة فى ذاتها حكومة يهيمن عليها رب الأسرة ، فالزوج المسئول الأول عن المحافظة على كيان الأسرة ، كما أن شريكته فى الحياة تضطلع بمسئولية تقرب من مسئوليته اذا أشركناها فى نظام الأسرة الاقتصادى . أما إذا أسندنا إليها وظيفتها الأولى وهى وظيفة التربية وإكساب الأخلاق لأفرادها وجعلها النموذج الحى لخادمتها ومن يعاشرنها من باقى أفراد الأسرة أو الجيران فهى تنوء تحت مسئولية جسيمة متفرعة إذا قسناها بمسئولية الرجل .

والمعروف أن نظام الأسرة عند الفقير أو الكبير يستأثر الرجل بوضعه ولا يخدش بتعرض على وضع هذا النظام حتى إذا ظهر خطأ فى نظامه هذا لام شريكته فى الحياة . وكل الأنظمة التى يضعها الرجل بمفرده مع الأسف أنظمة مرتجلة لا تمحيص فيها ولا تدقيق ولا استعراض لما حاق بالأسر التى سبقته ، ولم يأخذ درسا يفيده فى حياته الزوجية من الدوحة التى كان فيها غصنا فقد كان ابنا له أم وأب واخوة أكبر منه أو أصغر ، ولكنه يشذ عن عادات أهله وأسرته الأولى ظنا منه أن كل إنسان مسير للزمن الذى وجد فيه .

وقد يزداد الغرور فترى أن أباه التاجر لم يحمل شهادات ويعز عليه أن يرجع اليه ليتتلمذ عليه فى تنظيم الأسرة ، ولذلك يرتجل فى كل شهر نظاما ويجد ميزانيته العامة مختلة فيرجع فى كل شهر الى نظام جديد .

هذا إذا كان يسكن بعيدا عن أهله ليكون أسرة ويؤسس عائلة كما صنع أبوه من قبل

وهذا ما يجب أن يكون فأول معول يقوض صرح الزوجية المتين هو الخلاف الذى يدب بين الزوجة وأم زوجها .

نظام الأسرة بناء إذا بنى على الرمل ينهار ويجب أن يكون أساسه كما سنه الشرع الشريف أساسا متينا قويا وأغنى به الزواج فالزواج رباط متين يجب أن يبقى والا يدرك بهاءه الناصع أى لون من ألوان التشويه .

الزوج ولد له أم حملته كرها ووضعته كرها وأحبته أكثر من نفسها وفضلته على كل شيء عداه ولكنها فى ساعة من ساعات الهناء تفقده حبا ويذهب إلى مخلوقة أخرى هى زوجته فيمنحها قلبه ويقف عليها عاطفته وحنانه كما أنها تبادله كيلا بكيل وصاعا بصاع ويخيم عليهما طير الهناء يرفرف بأجنحة ملائكية وأغنى بها الألفة والأتحاد .

هذه المخلوقة التى شعرت بحب الزوج وعطفه وبادلته أكثر منه لا يجد كلاهما فراغا فى قلبه لغير شريكه فتظن الأم أن هذه الأجنبية سطت عليها ونزعت من فوق رأسها تاج عزتها وكرامتها وطارت بلبها معه .. وأصبحت عدوتها لأنها حرمتها من فلذة كبدها .

وهناك أم الزوجة وهى فى المرتبة الثانية بعد أم الزوج هذه قد تساعد على بناء صرح الهناء الزوجى أو تقوضه مثال ذلك أن الأم لشدة حنانها ومحبتها لبنتها قد يشغل بالها تهيئة مستقبل لبنتها وتزعم أن فى هذا سعادة بنتها ولكنها تستشير كاهلة أو امرأة تحسد بنتها على هذه السعادة فتلقى بيدها أو بلسانها بلغة أفصح قنبلة دونها القنبلة الذرية فيتصدع ذلك البناء وتشقى ابنتها شقاء يلازمها حتى تزف الى القبر .

وهذه القنبلة تلقى بشكل نصيحة أولا وآخرا أو على هيئة أسئلة عما يصنعه الزوج وتأمرها بأن تظهر الغضب والتأفف ليظهر لها الذلة والمسكنة وقد تكون جريمته الكبرى أنه يساكن أمه أو يزورها من وقت لآخر .

وقد تكون الحماة امرأة لا تعرف معنى الهناء الزوجى ولكنها تطمع فى أن تجعل ابنتها من ذوات الغنى واليسار فتعمل على ابتزاز أموال الرجل فان كانت مدنية بطبعها تطالبه بالانفاق على مظاهر المدنية لتساير أكبر منها جاها وأكثر غنى ولا تقارن بين الغنية والزوج المسكين فيختل نظام الأسرة ماديا ويطيش سهمها فان كان موظفا امتدت يده الى أموال الدولة واختلس ليشبع نهم الزوجة أو أمها على وجه أصح وإن كان تاجرا امتدت يده إلى رأس المال وكان مآله الإفلاس وحسبه مباهج المدنية وزخرفها الذى أفقده ملوما محسورا .

وإن كان من سكان القرى تمددت السعادات والبشايات والمعارك الكلامية ولكن العادات الموروثة تصبح مألوفة لا يحيد الزوجان عنها فتسكن الزوجة أم زوجها ويشتغلان

فى المنزل معا أو الفيط معا (كل حسب درجته) إلا أن أم الزوجة لا تفتأ تذكر حماة ابنتها بكل قبيح وقد تحدث مشاحنات تنتهى بتداخل العائلتين، عائلة الزوجة والزوج، ويجرد كل منهما سلاحه المادى، فيخر منه القتيل والجريح، ويتولى الحاكم الأمر وتفتح أبواب السجن وتزداد الحزازات، بينما الزوج والزوجة يودان لو لم تعكر صفوهما مثل تلك الحوادث، وقد يخل رباط الزوجية بعد أن يستحكم العداء بين العائلتين، والزوج والزوجة فى حالة لا يحسدان عليها، فالزوج لا يستطيع رؤية زوجته حرصا على كرامة عائلته، كما أن الزوجة لا تستطيع أن تبوح باسم مطلقها، لأن هذا فيه كل العار ويكون الحب المنشود من الزواج، جريمة قد تعاقب عليها الزوجة بالقتل لأنها لم تجار أهلها فى كره زوجها، وليس لها نصير إلا الله، كما أنها لا تملك غير دموعها السخينة تذرفها فى صمت وألم.

فالزواج وهو أساس النظام الزواجى فى مصر، يجب أن يكون بعيدا عن كل المؤثرات ومتى يصبح الرجل زوجا يجب عليه أن يكون رجلا بالمعنى المستفاد من هذه الكلمة، فإن كان مدنيا تفاهم مع زوجته فإن طالبته بما لا يستطيع تحقيقه لعسر مالى صارحها بهذا وكاشفها بحقيقته لأنه هو المسئول الأول، فقد يحدث أن يدعى الانسان الغنى واليسار، وأن يتباهى بمركزه ويفاخر برتبه ويزيد عليه أضعافه، ليقال عنه إن فلانا ميسور وورقه يجرى بين يديه سيلا يتدفق، وقد يكون موظفا باليومية ويدعى أنه رئيس عمل يأمر وينهى، وقد يكون أمه هى التى تمده بشىء من المال يستعين به على الحياة فيتظاهر بمظهر أكبر منه، والزوجة فى هذه الآونة لا تلام، إذ هى طالبته بالملبس الفاخر والتمتع بمباهج المدنية، خصوصا وأنه زمن خطبتها لا يضن عليها بالذهاب إلى دور السينما وأنواع الملاهى ويعودها على مشاهدة أماكن لم تسمع بها كالسباق وغيره، حتى إذا ما أصبحا زوجين، حرمها من كل تلك المباهج.

هذه الناحية الخلقية الاجتماعية، لم يتنبه إليها أحد وأنها طريق ملتو الذى يسلكه الزوج إلى صرح الهناء الزوجى ... ! فمن الملوم إذن ...

الزوجة إذا أصرت على دوام حياة الخطبة الهنيئة التى كانت سببا فى نسيان أهلها وأترابها ومنبتها وأكثر من هذا أرادت تقليد من يذهبون الى ذلك المعرض الفاخر، والزوج مسكين لا يستطيع أن يقوم بتلك النفقات، ولا يصارحها ويقول لها الحقيقة، فتظن أنه ضنين عليها بماله، وأن الكره دب بينهما، وأنه يستمع لأمه وأهله، وهى لا تجد من تشكو إليه هذا الضن إلا أمها التى تطغى عاطفتها على كل شىء، وتجد أن ابنتها مهضومة الحق، ويجب أن تفصلها عن زوجها، لأن هذا فى نظرها أكبر عقاب ينزل بالرجل، وما علمت أنه عقاب مزدوج، للزوجة النصيب الأكبر.

هذا من ناحية الإيهام والغرور وهناك ناحية أخرى أشد هي تحكم الأم فى ابنها عندما تسمع أو يشكو الابن لأمه حاله ومطالبة الزوجة بما لا يستطيع الانفاق عليها ولم يذكر الأسباب التى دعتها فتوصف الزوجة بأنها تريد خراب البيت وأنها لا تصلح له ويظهر الداء الكامن ويشتد اللجاج فى الصائح الذهبية فيمشى الزوج كالمجنون يهذى تارة ويحدث نفسه أخرى ويدخل البيت على غير عادته وتتبدل حاله وهناك تشعر الزوجة بأنها مهضومة الحق مساوية الهناء والسعادة والأسف يأخذنى ويطوينى حين أقول لبنات جنسى أننا لم نحسن التفاهم ولا إدارة الحديث الزوجى باللباقة التى يتطلبها الموقف فبدلا من أن تطفىء تلك النار التى أججتها حماتها تلقى عليها حطبا وهشيما ويتبدل الدلال نفورا . وتصبح الحياة أظلم من حياة الأعمى وإذا تدخل ناصح بينهما يكون كالموقد مصباحا بالنهار وتنتهى الحياة بالطلاق .

والطلاق شرعه الله لقطع العلاقة الزوجية إذا تعذر الامساك بالمعروف أما الرجل يستعمل هذا السلاح فى وقت يكون فيه ثائرا وبعد أن تهدأ تلك الثورة يعود إلى الندم أو بعد أن يرى نصحاءه بالأمس الشامتين فيه اليوم فهذا لا يسلم به العقل ولا يرضى الشارع بأن يكون الطلاق الذى هو قطع صلة الألفة بكلمة إرضاء لأم أو تسترا على حياة البذخ الكاذب فهذا لم يقصد إليه الشارع .

ولكن الطلاق لا يكون إلا بعد استحالة الحياة الزوجية وعدم تماسك بنيان البناء الزوجى وأن الهواء العليل يقتلع ذلك الصدع ففى هذه الساعة يحسن التطليق لأنهما لا يندمان على الفرقة .

وإذا كان الزواج أساسا للسعادة الزوجية والطلاق هو مقوضها فلنوازن بينهما وليكن التقويض فى الوقت الذى يتنافى معه البناء أو يستحيل .

ألم تر أن المرء تدوى يمينه فيقطعها عمدا ليسلم سائره

وفى ختام كلمتى هذه أريد أن ألخص ما مضى وما ضربت من أجله الأمثلة فأقول أن الزواج وإن كان أساسا فالصدق هو قوائم ذلك الصرح وحسن التفاهم أن يكون الزواج غير قاصر على المنفعة فقط ولكن يكون لغرض شريف هو تكوين أسرة خاصة كالحبة التى تنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة فهل أجد من بنى وطنى من يفقه قولى هذا ويعمل على إيجاد التفاهم والوئام بين العائلتين التى تحصل بينهما المصاهرة ليشتد أزر كليهما بالأخرى ونعرف كيف نعيش عيشة هنية ونحيا حياة سعيدة .

تفيده علام

مديرة مدارس جمعية أمهات المستقبل